31- دائرة المعارف الإسلامية الكبرى ، اشراف كاظم الموسوي البجنوردي ، مج 4 ، طهران ، 1999 .

رابعاً : المراجع الأجنبية

32- Colin, G. S. Un nouveau traite grendin d hippologie, Islamica, Leipzig, 1934 .

33- Sarton, G. Introduction to the History of Science, Baltimore, 1948 .

الحياة الأدبية والعلمية في تركيا العثمانية
في عصر محيي الدين محمد القراباغي ت 942هـ / 1536م

الأستاذ : نورالدين علوي

أستاذ مساعد / جامعة الجلفة

القراباغي نشأته وحياته :

تعتبر دراسة حياة هذا الأديب العثماني وبيئته وعصره، عينة مشرقة لأزهى عصر عرفته الدولة العثمانية، والذي يمتد بين القرنيين 9 و10هـ / 15 و16 م, فأسرة محيي الدين محمد القراباغي ذات الأصول غير الرومية قد تتركت قومية واستعربت لسانا، كونت مع الكثير من الأسر من عرقيات مختلفة الأمة العثمانية ، وتنتسب هذه الأسرة إلى طبقة العلماء، الطبقة الثانية في المجتمع العثماني الطبقي (اينالجيك خليل، 2002، ص 109)، والذي تستفيد بموجبه كل طبقة من ثروة الدولة , فهذه الأسرة بحسب طبقتها تحضى بيسر العيش وعظم المكانة لدى العامة والخاصة .

وقد ترجم له صاحب الشقائق النعمانية وذكره ضمن علماء الدولة العثمانية بقوله: « ومنهم العالم الفاضل الكامل محي الدين محمد القراباغي..»(طاشكبرى زادة ، 1975، ص 272)، وقد ظنت علينا المصادر أن تحدثنا عن صباه أو نشأته، ولم استطيع الوقوف عليها من خلال أدبه أو مؤلفاته، غير أن ترجمة االقرباغي قد لحقها وهم وغلط من طرف كثير من المترجمين، وقد أشار الزركلي إلى ذلك في هامش كتابه الأعلام وللأمانة العلمية قولا فيه كثير من الصواب حيث قال:« ... ونلاحظ من سماه محمود بن محمد ذكر كتابه المقالات في علم المحاضرات، ومن سماه محمدا أو محمد بن علي، اقتصر على كتبه الأخرى ومنها جالب السرور، فقد يكون شخصين اندمجا القره باغي والقرماني، لابد من تحقيقه »(الزركلي، 1992 ، 183/7)

ولكن يمكنني القول أن محي الدين محمد ولد في النصف الثاني من ق 9هـ/ 15م، ونشأ وتربى في بيئة بلاد العجم أو ما وراء النهر، الزاخرة بالعلوم والعلماء، وبالأدب والأدباء، فنهل منها وقرأ في مدارسها على علماء عصره، وفيها يقول الغزي :«.. قرأ على علماء العجم .. »، (نجم الدين الغزي، 1997 ، 71/2)، ثم دخل بلاد الروم في حكم سلاطين بني عثمان، ولازم المولى يعقوب بن سيدي علي وصار معيدا لدرسه في اسطنبول في إحدى مدارسها. (ابن العماد الحنبلي، 1993، 355/10)

من خلال ثقافة شيخه، وما ألفه من كتب، وما حضي به من تنويه لدى السلاطين، وعلماء عصره، نجد القراباغي قد تأثر بها، فكانت له نزعة صوفية ظهرت جلية واضحة في مؤلفاته متمكن من الفارسية والعربية كعادة أبناء عصره، وكانت حياته عامرة بالنشاط العلمي، دأب فيها على التدريس حيث يقول أحد

مؤرخي الترك في مسيرته العلمية: «.. ثم درس ببعض المدارس ثم أعطي تدريس مدرسة أزنيق..»، (بروسه لى طاهر، 1333هـ، 398/1). وتقول المصادر أن مدرسة أزنيق تسمى أنذاك مدرسة أورخان غازي، وقد كانت كنيسة بيزنطية وحولت إلى مدرسة بعد الفتح العثماني لها سنة 731هـ / 1371م، وتم إنشاءها سنة 736 هـ، وكان أول مدرس بها هو العالم داود القيصري (ت 751هـ)، وقد تم تسجيلها في الأوقاف سنة 821هـ من طرف المولى خسرو(ت 885هـ) وقد وُقِف لهذه المدرسة أشجار الزيتون والفواكه والبيوت القريبة من المدرسة، وقد ارتفع عدد طلبة هذه المدرسة لتصبح في القرن العاشر الهجري من أهم المدارس العثمانية (اينالجيك خليل، 2002، ص 255)

وقد زاد هذا التنقل في التعلم والتعليم في إنضاج شخصية القراباغي، وزيادة معارفه وسياحته في مدن الدولة، قد صقلت مواهبه، وأغنت تجاربه ، فأصبح محبوبا لدى العامة، تتلمذ على يديه الكثير في حلقات درسه ، فأفادهم بعلمه و سيرته ، وكانت أخلاقه مضربا للتنويه فقال عنه طشكبري زادة: « ...كان رحمه الله تعالى عالما فاضلا كاملا مشتغلا بالعلم الشريف ليلا نهارا،... ، وكان رجلا سليم الطبع حليم النفس متواضعا متخشعا أديبا لبيبا صحيح العقيدة رضي السيرة.. » (طاشكبرى زادة ، 1975، ص 272)، والقراباغي على عادة أهل بلاده حنفي المذهب، مهتم بمصادره، ففي كتابه لطائف الإشارات في المحاضرات والمحاورات نجده ينقل عن أئمة الحنفية وكتب المذهب، حيث لم يذكر في كتابه غير هذا المذهب، حتى في تصانيفه نجده شارحا أو معلقا على أهم كتبه.

ولقد استفاد القراباغي من تدريسه كما استفاد من تعلمه ، فثقافته تعتبر شاهدا لثقافة عصره وقد رصدها أيضا طشكبري زادة حيث قال عنه وعن ثقافته وعلمه : «..وكانت له معرفة تامة بالتفسير والحديث والأصول والعربية والمعقول..،وكل ذلك قد قبله علماء عصره ووضعوا عليه علامات القبول بخطهم », (طاشكبرى زادة ، 1975، ص 272)، وعندما نستقرئ هذه الثقافة نجد أن مؤلفنا عربي اللسان متقن للفارسية ذا ثقافة دينية راسخة، ساهم في تفسير القرآن الكريم لأبناء عصره، ويعتبر من المفسرين المشهود لهم، متبحر في العلوم حتى أنه اشغل بالمعقول وهي من العلوم العقلية .

وفي سنة 942 هـ الموافق 1536م توفي القراباغي في مدينة أزنيق وهو لا يزال يدرس بإحدى مدارسها كما ذكره صاحب كتاب عثمانلى مؤلفلرى:«.. ثم مدرسا بمدرسة أزنيق ومات وهو مدرس بها في سنة أثنين وأربعين وتسعمائة.. » (بروسه لى طاهر، 1333هـ، 398/1)

الحياة الأدبية والأدبية في عصر القراباغي :

قامت المؤسسات التعليمية العثمانية وتطورت الحياة العلمية بفضل التقاليد المستقرة التي ورثها العثمانيون عن الحواضر القديمة منذ عهد السلاجقة، وقد سار التعليم لحقبة طويلة عند العثمانيين عن طريق المؤسسات الرسمية وغير الرسمية، ويمكننا القول أن المدارس لعثمانية في عهودها الأولى كانت استمرارا طبيعيا للنشاط التي توطدت أركانه في مدن الأناضول قبل العثمانيين، مثل: أماسيا، وقونية، وقيسرية، وقرمان، وكان الفضل في ظهور هذا النشاط للعلماء الذين وفدوا من مصر وسوريا وإيران وتركستان والتي تعد من اهم المراكز العلمية والثقافية في ذلك العصر(يلماز أوزتونا، 1990، 485/2).

وأسهم نظام المدرسة التي تركه السلاجقة الأتراك مع ما أضافه الأتراك العثمانيون عقب كل فتح مدينة جديدة أن يكون همهم الأول هو إقامة جامع والى جواره مدرسة، وكان هذا التقليد موجه لتنشئة الكوادر الإدارية والعلمية اللازمة لإدارة دفة الأمور في الدولة، فضلا عن القيام بالمهمات الدينية والعلمية والتعليمية اللازمة للدولة والمجتمع (أكمل الدين إحسان أغلى، 2011، 453/2)، وقد خبر السلاطين العثمانيين الأوائل قيمة العلم والعلماء فكانت لهم خطوات ملموسة للتشجيع عليه.

وكانت بداية التعليم المدرسي عندهم بداية متواضعة ظهرت مع أول مدرسة في الدولة وهي مدرسة أزنيق التي أقامها السلطان أرخان غازي سنة 731 هـ (اينالجيك خليل، 2002، ص 255) ، وجرى تشجيع نظام الأوقاف ليكون هو السياسة المعتمدة التي تجري عليها الدولة، فالمدرسة هي عبارة عن مؤسسة وقفية تكون عنصرا من مجمع يظم جامعا وغيرها من المنشآت الخيرية التي تساعد على التعليم ، وهي مؤسسة تدار إدارة ذاتية لها أوقاف تصرف عليها من بساتين ودور وأسواق، أما المدرس فيعين بمرسوم سلطاني (خليل انالجيك ص 259)، ولم يمض وقت طويل حتى كثرت المدارس في كافة مدن الدولة.

وكانت علوم الدين والعربية من المقومات الأساسية في ثقافة الترك آنذاك، وهو الاستمرار الطبيعي للعصر العباسي فالسلجوقي فالمملوكي، ولكن لابد لكل عصر من ميزات،(عمر موسى باشا ، 1980 ، ص 203) وكانت حياة العثمانيين العلمية تكاد تخلو من الإبداع فهي تتخذ طريقها في مجاري التقليد والتبعية، ذلك أن العلم بالنسبة للشاب التركي المسلم ليس معرفة جديدة، بل التمكن لأبعد حد ممكن من العلوم التي أنتجتها الأجيال السابقة، وكان أعظم القدر عندهم التفقه في الدين (كارل بروكلمان، 1968، 482) .

1 / الكتاتيب أو مكاتب الصبية:

ولكي نفهم بدقة نظم التعليم في هذه الدولة يجب تتبع ترتيب المدارس العثمانية والتي تبدأ أولا بمكاتب الصبية وهو المكان الذي يتولى مهمة التعليم والتربية الأولى للطفل عند العثمانيين، وهو استمرار للمدارس التي عرفت في الحضارة الإسلامية بالكتاب وكانت تقام تلك الكتاتيب داخل المجمعات التعليمية والى جوار المساجد، وتم تشييدها من طرف رجال الدولة والسلاطين وعائلاتهم، ونظرا لأنها لا تكلف شيئا انتشرت في كافة القرى والنجوع والإحياء. وكان من العادة أن يلتحق الطفل بهذه الكتاتيب عند بلوغه سن الخامسة، ويبدأ دروسه باحتفال مهم مفعم بالحيوية يقال له احتفال آمين أو آمين ألاي، أو بدأ البسملة، ولم تكن للكتاتيب من الناحية الرسمية برامج تعليمية محددة ولكن يمكننا من خلال أرشيف الوقفيات المدونة حول الدروس، ومن الأحكام التي كانت تصدر أنها كان منوط بها بوجه عام تعليم الأطفال القراءة والكتابة ومبادئ الدين الإسلامي، وتحفيظ القرآن، والعمليات الحسابية، ويتم تحفيظهم بعض المعاجم المنظومة (أكمل الدين إحسان أوغلى، 2011، 249/2، 250).

وهناك آراء متباينة حول لغة التدريس في تلك المدارس الأولية ولكن هناك قبولا بان لغة التعلم هي التركية وبالرغم من عدم تحديد سن التخرج من تلك المدارس إلا أن الصبي كان ملزما بختم القرآن مرة واحدة على الأقل (أكمل الدين إحسان أوغلى، 2011، 250/2).

المدارس الأولى:

كان يقوم بالتدريس مدرسون ولدوا ونشئوا في الأناضول أو ممن تعلموا في المراكز الإسلامية العلمية القديمة مثل مصر والعجم وغيرها، ثم عادوا إلى الأناضول، أو ممن ولد خارج الأناضول وتعلموا هناك ثم التحقوا بخدمة الدولة العثمانية، وقد تزايد عددهم مع اتساع الأراضي العثمانية واشتداد قوتها وسخاءها على العلماء، وقد تحولت بذلك الدولة إلى مراكز جذب قصدها الكثير كما حدث لمحيي الدين القراباغي، وكان عدد المدارس قبل الفاتح 82 مدرسة 25 مدرسة منها في بورصة، و13 في ادرنة، و4 في أزنيق، أما المدارس في المدن الصغرى فيبلغ 40 مدرسة (طاشكبرى زادة ، 1975، ص 50، 220)

عصر الفاتح:

أما التغيير الجذري الذي حدث في نظم التعليم العثماني ومؤسساته فقد حدث مع السلطان محمد الفاتح، فبعد فتح القسطنطينية سنة 853هـ / 1453 م شرع في أعمارها حتى يضفي عليها شخصية جديدة تصبغ بالتوجه الإسلامي، وشجع الآخرين على الانخراط في مسعاه، وأثمرت تلك الجهود بتحويل أكثر من 100 بناء بيزنطي إلى مساجد ومدارس وخنقاوات، ولكي يجعل الفاتح عاصمته الجديدة حاضرة للعلم أمر بإقامة جامع على أنقاض الكنيسة الرسولية فوق احد مرتفعات اسطنبول عرفت فيما بعد باسمه (كارل بروكلمان، 1968، ص 434).

وقد أقيمت حول الجامع كليته المشهورة والتي تتكون من عدة مدارس وقد عبرت تعبيرا صادقا عن الحياة العلمية والتعليمية في سياسة الفاتح المركزية، وكانت مدارسه تعرف بالمدارس الثمانية لأنها كانت تتكون من ثمانية مدارس عالية وخلفها ثمانية مدارس أخرى صغيرة تعرف باسم تتمة أي 16 مدرسة على جانبي الجامع، وكان في كل مدرسة 19 غرفة وقاعة للدرس ومن بين هذه الغرف خصصت 15 غرفة للطلاب في مرحلة التخصص المعروفين بالدانشمند، بالإضافة إلى المكتبة المشتركة كانت هناك مكتبة لكل مدرسة(خليل اينالجيك، 202، ص 256) ويوجد كذلك في الجانب الغربي كتاب لتعليم الصبية ، كما أقام بجانب تلك المدارس مؤسسات أخرى تساعد على الحياة العلمية مثل دار الإطعام ودار الإقامة ودار الشفاء ومكتبة أقيمت داخل الكلية مما يدل على أنها كانت مركزا تعليميا متكاملا، وتتضارب بعض الآراء حول أن الوزير محمود باشا بمعية علي قوشجي والمولى خسرو قد أعدا برنامجا متكاملا للتدريس بأمر من الفاتح. (أكمل الين إحسان أوغلى، 2011، 457/2 ، 458).

وكانت هذه المدارس تقوم بتعليم العلوم الدينية في أغلبها إضافة إلى العلوم العقلية كالفلسفة والمنطق والرياضيات بناء على المناهج التي أتى بها علي قوشجي من سمرقند (طاشكبرى زادة، 1975، ص 98)، قد اصدر الفاتح مجموعة قوانين تنظم التدريس ودرجاته بناء على الأجر اليومي الذي يتقاضاه المدرس ويبدأ من 20 أقجة (العملة المحلية العثمانية) ، ويزيد 5 أقجات حتى يصل إلى 50 اقجة، وتبعا للكتاب الأساسي اللازم تدريسه فيها (أكمل الين إحسان أوغلى، 2011، 458/2)

وبفضل هذه التشريعات تم ترتيب مدارس الفاتح على النحو التالي (خليل إنالجيك، 2002، ص256، 258):

1 / مدارس حاشية التجريد(مدارس العشرين):

وتتبع كتاب حاشية السيد الشريف الجرجاني (ت 816 هـ/1414 م) على الشرح الذي حرره محمود بن أبي القاسم الأصفهاني (ت746هـ/ 1345م) على الكتاب الذي ألفه نصير الدين الطوسي (ت 672 هـ/ 1273 م) وهو تجريد الكلام، وحاشية التجريد كتاب أساسي في مقررات هذه المدارس، والى جانبه يدرس كتاب شرح الفرائض للسيد الشريف أيضا وكتاب المطول لسعد الدين التفتازاني (ت791 هـ/1318 م)، والكافية في النحو وعلم الصرف، والطوالع في أصول الفقه وشرح الإيساغوجي في العربية (راجع حاجي خليفة).

2 / مدارس المفتاح (مدارس الثلاثين):

وهذه المدارس ترتكز على البلاغة والعلوم الأدبية، وهي تتبع كتاب مفتاح العلوم للسكاكي (ت 626 هـ/ 1228 م) في البلاغة والذي يدرس مع شروحه للجرجاني والتفتازاني، إضافة إلى كتب أخرى مثل التنقيح والتوضيح، وتتمة حاشية التجريد في علم الكلام، وكتاب مفتاح المعاني، وكتاب صدر الشريعة، كما ذكره حاجي خليفة (راجع حاجي خليفة) بأمر من السلطان محمد الفاتح، ومعظم مدراس العشرين والثلاثين كانت تنتشر في كل أنحاء الدولة.

3 / مدارس التلويح (مدارس الأربعين):

وتتبع كتاب التفتازاني المسمى التلويح، وهو أساسي في هذه المرحلة التعليمية، وهو شرح على كتاب أصول الفقه لمؤلفه صدر الشريعة عبيد الله البخاري (ت 747 هـ/ 1346 م) المعروف باسم تنقيح الأصول، بالإضافة إلى كتاب التفتازاني شرح على التلويح المسمى توضيح التنقيح، وكذلك مشارق الأنوار للصاغائي، والمشارق لصدر الشريعة، والمصابيح للبغوي، ومفتاح العلوم في البلاغة. وكتاب المواقف للإيجي، والهداية للمرغيناني .(راجع حاجي خليفة)

4/ مدارس الخمسين: وتتبع هذه المدارس مجموعة من المدارس وهي:

أ / مدارس الخارج: وهي المدارس التي أنشاها الحكام وأسرهم والوزراء في العهد السلجوقي، وأمراء الأناضول الأوائل قبل العثمانيين، وكانوا يدرسون فيها كتاب الهداية للمرغيناني، وكتب أصول الفقه وكتاب التلويح ويتعلمون التفسير بواسطة الكشاف. (راجع حاجي خليفة)

ب / مدارس الداخل: وهي المدارس التي أنشاها السلاطين العثمانيون وأمهاتهم وزوجاتهم والأمراء وبنات السلاطين وتدرس فيها كتب الهداية في الفقه، والتلويح في أصول الفقه، والبخاري في الحديث، والكشاف والبيضاوي في التفسير.

ج / مدارس التتمة أو الموصلة للصحن:

وهي المدارس الثمانية الأولى أو الابتدائية في مدارس الفاتح، وهي تعادل مدارس الداخل من حيث التنظيم والكتب المقررة للدراسة ودورها إعداد الطلاب لمدارس الصحن

د/ مدارس الصحن: وهي المدارس الثمانية الثانية وتعتبر أرفع المدارس العثمانية وأعلاها درجة آنذاك، وكان الطلاب يدرسون مجموعة من ثلاث مواضيع يختارونها من بين الفقه والتفسير والعقيدة والبلاغة،

والدراسات المتصلة، وكانت تدرس إلى جانب هذه العلوم النقلية التي بيناها في الكتب المدروسة سابقا، علوما عقلية مثل الهندسة والرياضيات وعلم الهيئة والمنطق والجغرافيا والطب في دار الشفاء الموجودة في كلية الفاتح .

أما مدرسة أيا صوفيا فقد ظلت المدرسة الوحيدة في الدولة التي مدرسوها أعلى مقام ويتقاضون 60 أقجة، واستمر نظام التعليم والمدارس الذي وضعه الفاتح وفي عهد بايزيد الثاني دون تغيير، فلما أقام مدرسته المرادية في بورصة وعين عليها المولى لطفي التوقاتي (لا يعرف ميلاده ولا وفاته) باجر قدره 60 أقجة أصبحت المدرسة الستينية الثانية في تركيا العثمانية (طاشكبرى زادة، 1975، ص 169)، أما في عهد السلطان سليم فلم يحدث أي تغيير لميله للحروب والفتوحات، حتى أن فترة حكمه كانت قليلة.

عصر السلطان سليمان القانوني:

ولما اعتلى السلطان سليمان القانوني عرش السلطنة أراد أن يضفي على التعليم في دولته تغييرا جذريا، فبني كليته في المرتفع الثاني من المرتفعات السبعة التي تعرف بها اسطنبول، وهذه الكلية التي أطلق عليها اسم السليمانية، مثلت ذروة التاريخ الثقافي والعلمي والتعليمي عند العثمانيين .

وقد شكل إنشاء تلك الكلية ما بين (975 هـ/ 963 هـ) (1550 م/ 1557 م) الكشف عن قوة القانوني وعبقرية المعمار سنان (ت 980هـ / 16) مرحلة تطور هامة في التعليم العثماني والتجديدات التي طرأت عليه، فقد أقام حول جامعه عددا من المدارس والكتاتيب، وكان التعليم فيها فى شتى المستويات وفروع التخصصات، وأقيم داخل الكلية كتاب للصبية وأربعة مدارس عرفت بمدارس الصحن، كما أوجد مدرستان للتخصص وهما: مدرسة الحديث (دار الحديث) ومدرسة الطب (دار الطب) عرفت بالمدارس السليمانية (خليل إنالجيك، 2002، ص 259) إلى جانب مرافق أخرى من مكتبات ودار الإطعام ودار النقاهة وكانت كلية القانوني تمثل النموذج المتطور بعد كلية الفاتح، وتقوم بخدماتها العلمية والدينية والإنسانية والاجتماعية والثقافية في إطار متكامل.

وقد رتب القانوني أجر كل مدرس من مدارسه، فالمدارس الأربعة يتقاضى مدرسوها 60 أقجة، ومدرس دار الحديث 50 أقجة، ومدرس دار الطب 20 أقجة، وبهذا تصدرت مدارسه مدارس الصحن التي أنشأها الفاتح، وقد ارتفع أجر مدرس دار الحديث إلى 100 أقجة وبذلك أصبحت تلك المدرسة أرفع المدارس العثمانية (أكمل الدين إحسان أوغلى، 2011، 460/2) ، واستطاعت المدارس السليمانية أن تحافظ على مكانتها العالية داخل التدرج المعروف في المدارس حتى العهود التالية، ويعتبر عصر سليمان القانوني منعرجا حاسما لنظم التعليم في الدولة فقد نظمها بمراسيم سلطانية بعد سنة 926هـ / 1520م، وحدد أنماط المدارس للدراسات العليا وأخرى للدنيا، وقسم درجات الدراسة إلى إحدى عشرة قسما مجزأة إلى جزأين: جزء يسمى الدراسات الفكرية، وجزء يسمى الدراسات الدينية ، وفي كل قسم يتوج المتعلم بشهادة تحوله إلى القسم الأعلى، وأمر أن تكون الدراسة مجانية وضمن للتلاميذ المأكل والسكن، وكان يتعهد المدارس بالهبات والأوقاف، وكانت الكليتان السليمانية والفاتح نقطتي تحول كبيرتين في الحياة العلمية عند العثمانيين،

إذ تمثلان أرفع المستويات التي بلغها الجهاز التعليمي من حيث أشكاله المعمارية والإمكانات المادية التي تتمتع بها، وثراء برامجه التعليمية ومكتباته (أكمل الدين إحسان أوغلى، 1،2001/291 و 461/2).

مناهج التعليم:

ومناهج التعليم في هذه المدارس مضبوطة، فكان على الطالب منذ التحاقه بالمدرسة حتى تخرجه أن يقرأ العديد من الكتب في شتى فروع العلم، ويتلقى الدروس فيها، وقد ذكرنا سلفا هذه الكتب المقررة، ويمكننا أن نلمس هذا الوضع التعليمي بدقة من خلال الاطلاع الدقيق على التعليم الذي تلقاه طاشكبرى زادة في القرن 10 هـ/ 16 م وهو من معاصري القراباغي والمواد التي قام بتدريسها بعد أن أصبح مدرسا من خلال ترجمته لنفسه (طاشكبرى زادة ، 1975، ص 325، 331)، أو ترجمة لالي بالي له (ص 336، 340)

ونلاحظ حين نتتبع بعض التراجم لمؤلفين عثمانيين أن الكتب المقررة على طلاب المدارس جرى تغييرها بعض الشيء بحيث تضمن لكل متعلم أن يحصل على القدر اللازم من المعرفة التي تنفعه في أمور الدين والدنيا، لأن العلوم في نظر العثمانيين مرتبطة بالمفهوم الإسلامي التقليدي الذي يرى أن التعليم الديني هو العلم الوحيد الذي له هدف سام، وهو فهم كلام الله، وكان الأساس في هذا التعليم القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، بينما العقل فإنه يعتبر أداة مساعدة لخدمة الدين.

أما منهجية البحث فتتمثل في البحث عن الدليل في القرآن والسنة ثم الاجتهادات، ولكن لم يكن مسموحا التجديد في العلوم الدينية إلا في المسائل الثانوية ولذلك أقيمت الشروح والملخصات والحواشي، وهي الأشكال الرئيسية التي ألف على منوالها العلماء العثمانيون.

وقد رتبت تلك الكتب على تنوعها في نحو وصرف اللغة العربية، والمنطق والحديث والتفسير، ويأتي بين هذه العلوم الخمسة أخرى كثيرة، وهي آداب البحث ،الوعظ، البلاغة، الكلام، الحكمة، الفقه، الفرائض، أصول الفقه، أما المدارس المتخصصة فتدرس النحو التركي والعربي والبلاغة والفلسفة والفلك والرياضيات والقانون والفقه الإسلامي (أندري كلو، 1991، ص 421) ، وتوالت الدراسة بهذه الطريقة على طول حياة السلاطين بالرغم من أن المؤرخين قد حكموا على هذا التعليم في بلاد الترك بأنه ذو طرائق تقليدية سواء في مواده التعليمية أو مناهجه (ليلى الصباغ ، 1986، ص34).

ولقد تأرجح طلب العلم في الدولة العثمانية بين لغات ثلاث، التركية والعربية والفارسية، وأصبح المثقف منوطا به أن يحسن استخدامها، فاللغة التركية التي أثبتت وجودها المدون منذ القرن 7هـ / 13م، كانت زاخرة بالمفردات العربية، كما اقتبست أخرى من الفارسية وسارت مع العربية وهي الأعلى شأنا، حتى جاء السلطان سليم وفكر في جعل اللغة العربية لغة الدولة (ليلى الصباغ ، 1986، ص 9، 10)، أما في عهد سليمان القانوني فقد رجعت فيه الدولة سيرتها الأولى، وأصبح إتقان اللغات الثلاثة ضروريا لكل متأدب أو سياسي، وأصبح هذا المسلك طريقة مثالية للوصول إلى المناصب السلطانية

بعد أن انتشرت اللغة التركية في كامل العالم الإسلامي بما فيه الوطن العربي، وأصبح مثقفوه يتقنونها، وحتى العامة تداولوا كلمات منها ليست بالقليلة (عمر موس باشا، 1980، ص 204)، ومهما كانت اللغة المتداولة عند العثمانيين في حركيتهم التعليمية أو الرسمية نجدها قد أفرزت نشاطا علميا، كان له ثمار

تجسد في بروز مؤلفات كثيرة جدا في ميدان العلوم الدينية والأدبية والتاريخية وأغلبية مؤلفيها كانوا نتاجا للنشاط العلمي الذي نمى في المدارس الكثيرة المنتشرة في بلاد الترك، وقد قيل أن لا جديد في هذا التراث إذ لم يخرج عن تقليديته وظل مؤلفوه يعتمدون على تدارس علوم السلف من تفسير وحديث وقراءات وفقه بالشرح أو التعليق أو الاختصار أو التصنيف على غرارها (راجع كشف الظنون) ،

ولكن قبل الحكم نهائيا بالتبعية في هذا التأليف في ذلك العصر بالذات يجدر بنا أن نذكر عند مسح مؤلفات الأتراك ندرك أنه يوجد تيار علمي نشيط له مؤلفات كان محورها العلوم العقلية كالرياضيات والفلك والطب والكيمياء، وفي الحقيقة أن من يقرأ بدقة كتب التراجم في هذه الحقبة سيخرج بحصيلة خصبة في عمل رائد في شتى المجالات والعلوم، ولاسيما الحساب لأنه مرتبط بعلم ديني هام هو علم الفرائض (ليلى الصباغ ، 1986، ص 22، 23) ، وكانت الرياضيات من العلوم التي يدرسها طالب العلم في ذلك العصر، فقد ذكر المؤرخ طاشكبري زادة أن المولى قاضي زادة كان له معرفة بالعلوم الرياضية، وأن المولى خضر بك كان متبحرا في العلوم العقلية، وأن المولى علي الجمالي أيضا يغلب على طبعه العلوم العقلية(طاشكبرى زادة، 1975، راجع تراجمهم)، وكان تبادل العلماء والمدرسين قائما على نطاق واسع في البلاد العربية والتركية في تلك الحقبة، فقد ذكر المؤرخ السابق أن العالم أحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني (813هـ / 892هـ) تعلم بمصر ورجع إلى بلاد الروم ليكون معلم السلطان محمد الفاتح واشتهر بعلم التفسير، وله فيه تفسير مشهور أورد فيه مؤاخذات على البيضاوي والزمخشري، ثم رجع إلى مصر ليدرس هناك بأمر سلطان المماليك (طشكبرى زادة، 1975،ص 51)

وقد جاء في القانوننامة التي تنظم الحياة التعليمية في عهد القانوني « اعلم أن المناط في نظام العالم وصلاح أحوال بني آدم، والباعث على تدوين نسخ الخلائق والداعي لإنشاء الدولة والحقائق، هو تحصيل المعرفة من جناب رب العالمين وتكميل علوم الأنبياء والمرسلين..» (أكمل الدين إحسان أوغلى، 2001، 467/2) ، من خلال هذه الديباجة تتكشف لنا آراء رجال الدولة ونظرتهم إلى العلم، كما يفهم أن الهدف من التعليم أولا إيضاح العلم والحكمة، ثم الترتيب للدين والفضيلة والمعرفة والشريعة، وتطوير المواهب والملكات الإنسانية ويرى السلطان نفسه مسئولا عن تحقيق ذلك (أكمل الدين إحسان أوغلى، 2001، 467/2 468)

وعندما نتتبع في أغلب التراجم التي رصدت في الشقائق النعمانية أن أغلبية المترجم لهم تلقوا دروسا متنوعة من العلوم الرياضية والحساب والهندسة والجبر والهندسة والفلك، ومن العلوم الطبيعية الفيزياء الكلاسيكية، وهذا التنوع كان جديرا بالتنويه، ولكن أغلبيتها كانت تدرس بعد الحكمة وقبل التفسير.

وقد كانت أدبيات العلوم عند العثمانيين متواترة غلب عليها التأليف باللغة العربية والفارسية، ولم يظهر التأليف بالتركية إلا فيما بعد، فقد بدأت أولا حركة الترجمة إلى التركية ونقلت كثير من الكتب الجليلة من العربية إلى التركية، ونستطيع ان نترصد ذلك في كشف الظنون، أما التدوين باللغة التركية فقد كان لا يتجاوز أصابع اليد. ولا نجانب الصواب إن قلنا إن هدف النشاط العلمي الذي اضطلع علماء المسلمين في العصور السابقة به، قد نشطوا في كثير من المجالات المختلفة وألفوا في كثير من العلوم، لم يلبث الانتعاش الذي شهدناه في حركة التأليف والترجمة التي بدأت مع عهد الفاتح أن يعطي ثماره عي عهد القانوني والعهود

التي تلته، فقد بدأت تظهر آنذاك أعمال جديدة مبتكرة تضاف إلى الرصيد العلمي التقليدي في مجالاته، ولا سيما في الرياضيات والفلك والجغرافيا والطب، فظهر هناك 63 عملا تقريبا قام بوضعها 43 كاتبا 51 منها بالعربية 10 بالتركية 2 بالفارسية (أكمل الدين إحسان أوغلى، 2001، 624/2) ، وفي الفترة الواقعة ما بين القرن 15 و16 م أُلف في علم الفلك وحده 325 مؤلفا وضعها 118 عالما عثمانيا، ومن هذه الكتب 207 بالعربية و66 بالفارسية 52 بالتركية (أكمل الدين إحسان أوغلى، 2001، 629/2) ، إضافة إلى الكثير من الكتب في الدين والفقه والتصوف والطب والمنطق والطبيعيات وكان اغلبها بالعربية ، وأهم ما يميز هذه التآليف ما بعد الفاتح كتب لها شأن اقتفى أصحابها النهج الإسلامي التقليدي (راجع حاجي خليفة).

و مما لا شك فيه أن مصادر المعرفة آنذاك تدين إلى تتلمذ العثمانيون على يد العرب، وخاصة في مجال العلوم العقلية، وهم السباقون إليها، وسعوا كذلك في مجال كتابة التاريخ إلى محاولة تقليد نماذج السلف، غير أن تأليفهم التاريخي كان عبارة عن أوصاف وروايات مفصلة، وضعها شهود عيان هم في الغالب موظفون كبار شاركوا شخصيا في صناعة تلك الأحداث، وهي قيمة جدا من الناحية التاريخية، وما يعيبها أن أسلوبها عامي لم يتحرر من الخرافة الغالبة عليه، أما في حقل الجغرافيا فقد غرف الأتراك من كتب العرب واللاتين، ونحا نحوهم أمير البحر التركي بيري رئيس في القرن 16م، فوصف شواطئ البحر المتوسط عن طريق رحلاته بقيادة بربروس واستطاع أن يرسم خريطة دقيقة سنة 1513م موضوعة على أساس خريطة كولومبس، وأهداها إلى السلطان سليم سنة 1517م (كارل بروكلمان ، 1968، 483، 484) .

ورغم توفر كل الظروف العلمية والتعليمية في الدولة وازدهار المدارس وكثرة المدرسين والدارسين بها ورواج المكتبات، كل هذا لن يستطيع أن يحقق شيئا، لو لم يكن السلاطين أنفسهم هم رعاة هذا الأمر كله، ناشئين عليه فأغلبية سلاطين آل عثمان حتى سليمان القانوني كانوا ذواقين للآداب مهتمين بالعلم ، لم تشغلهم السياسة والحرب عن رعايته وتحقيق التقدم فيه، إضافة إلى ما سبق ذكره فإن السلاطين فتحوا قصورهم لكل أشكال الإبداع فقصدهم العلماء والفقهاء والقراء والشعراء والأدباء ، وكانت الأموال تغدق عليهم بسخاء ، فمثلا الشاعر محمود عبد الباقي الشاعر الغنائي التركي الكلاسيكي تقلد بالشعر مناصب الدولة والقضاء والتعليم، وسمي بسلطان الشعراء، ومثله المهندس المعماري سنان باشا الذي أحيط بهالة من الاحترام، وقد كان موجود في قصر السلطان سليمان ثلاثون رساما لإعداد المنمنمات (أندري كلو، 1991، ص 386)، ونجد لطف الله التوقاتي (ت 900 هـ/ 1495 م) ألف كتاب في موضوعات العلوم، ثم شرحه، وطاشكبرى زادة ألف اثنين من اجل الكتب: الشقائق النعمانية، ومصباح السيادة وغيرهم الكثير(راجع حاجي خليفة)

إن العملية التعليمية التي ضبطها العثمانيون إداريا وقانونيا ومنهجيا، قد استطاعت أن تخرج طلابا على القدر اللازم من التحصيل العلمي، لتتوج بإجازة التخرج التي تفتح لهم المجال في التوظيف في مجالات عدة، منها: التدريس، أو القضاء، أو الإدارة أو العسكرية، ضمن النظام البيروقراطي المركزي للدولة، وقد حافظت هذه الطبقة العلمية على امتيازاتها وصلاحياتها طوال عقود من الزمن داخل الدولة (أكمل الدين

إحسان أوغلى، 2011، 227/1) ، وهذه الطبقة قد ذكرناها سابقا ضمن سياقها في طبقات المجتمع العثماني.

نظام الملازمة:

الملازم هو الذي يساعد الأستاذ في تنظيم الدراسة وإعادة الدرس للطلاب، والمساعدة في تسيير النظام العام للمدرسة، ونظام الملازمة هو الأساس في تشكيلات الهيئة العلمية والتي تدل على أمرين:

1/ هو مدة التدريب العملي التي يقضيها الطالب الملازم بعد تخرجه من المدرسة إلى إن يجرى تعيينه في إحدى وظائف التدريس أو القضاء.

2/ مدة الانتظار التي يقضيها المدرس أو القاضي بعد عزله المؤقت من وظيفته حتى تعيينه مرة أخرى

ولم يكن الخريجون في بداية الدولة مضطرين للانتظار لتعيينهم في وظائف الدولة لقلة عددهم، فلما كثرت أعدادهم في بداية القرن 16 م اختل الوضع، رغم أن القواعد المتعلقة بهذا النظام كانت موجودة منذ القديم، فلم ير أحد ما يدعو لتطبيقها بدقة، ولكن حينما تزاحم الخريجون ووقعت بعض المخالفات، عرضوا شكواهم على السلطان سليمان القانوني الذي كلف أبا السعود أفندي قاضي عسكر الروملي آنذاك للقيام بوضع قانون ينظم هذا الأمر المهم من جديد، فوضع أبو السعود المبادئ الأساسية، وحدد النظام الذي يتيح لكل عالم أن يصطحب إلى جانبه عدد معين من خريجي المدارس ليكونوا ملازمين له، ثم اصدر القانوني أوامره المشددة بان يُراعى هذا النظام الجديد بحذافيره، والذي يفرض على الطلاب المتخرجين فترة تدريب إلزامية (أكمل الدين إحسان أوغلى، 2011، 1/ 288).

تعيين المدرسين:

والمبدأ الأساسي في تعيين المدرسين هو توظيف مدرس واحد لكل مدرسة، وكانوا في بداية عهد الدولة يعينون أكثر من مدرس على بعض المدارس الكبرى تبعا لمذاهب السنة الأربعة، غير إن هذا التقليد ضل من النماذج الاستثنائية، وقد تمسكوا دائما بالقوانين التي تحددها الوقفيات التي تتبعها المدارس من حيث التعيين والرواتب وأوقات العمل، وكانت هذه التعيينات في بداية الدولة أن يُثبت المدرس في مدرسته مدى الحياة، غير أن زيادة عدد المدارس وتكاثر عدد الخريجين فيما بعد جعل التعيين في التدريس محددة المدة، وكان أمر التعيين منوطا بقاضي العسكر وحده، ثم تغير ليصبح تعيين كبار المدرسين من اختصاص شيخ الإسلام، فيما ترك تعيين الأقل درجة منهم لقاضي العسكر.

وهذا التعيين كان له طرق مضبوطة حيث يرشح من طرف قاضي العسكر أو شيخ الإسلام، ثم ينتقل القبول إلى الصدر الأعظم الذي يحرر وثيقة يرفعها الى السلطان ليصدر فيها فرمان، ثم تُحرر هذه الفرمانات في السجلات، وقد يكون الفرمان فردي أو جماعي بحسب الحاجة، وأقر بأن لا تسند أي وظيفة في المراتب الدينية أو القضائية خارج أصحاب الشهادات ممن تخرجوا من المدارس (أكمل الدين إحسان أوغلى ، 2011، 291/1، 292).

وتواصلت حركة توظيف الأساتذة وفق العرف العثماني الذي ورثه السلطان سليمان عن أجداده، وهو الذي يسمح له شخصيا بتعيين كل المدرسين في الدولة، ويحق له نقلهم أينما شاء، أو إلزامهم التقاعد

باعتبارهم موظفين لديه ، وكان هو الذي يعين مرتباتهم بحسب الكفاءة و المنصب، وقد ذكر طاشكبري مرتبات المدرسين أثناء مزاولتهم المهنة أو مرتباتهم أثناء التقاعد، وذكر أن هناك تنافسا بين هؤلاء العلماء للتقرب من السلاطين وطلب ما يحتاجونه من مال حتى لا يعوقهم طلب الرزق عن الاشتغال بالعلم و النبوغ فيه (راجع طاشكبرى زادة)

غير أن تعيين المدرسين بعد تزايد عددهم أصبح وفق اختبارات القبول والتي ظهرت في القرن 16 م بعد قضائهم فترة الملازمة الإجبارية، نجد الراغبين في الالتحاق بسلك التدريس يتقدمون بطلبات عند خلو إحدى المدارس، ولاسيما الكبرى منها، والذي يعقد لهم امتحان لاختيار الأحق، وكانت الامتحانات تعقد في المساجد الكبرى كجامع الفاتح، ويكون قاضي عسكر الروملي وقاضي عسكر الأناضول قائمين على الامتحان، فيقدمان للمترشحين موضوعا معينا يطلبان إعداده، ثم يطلبان من المترشح إلقاء درس معين بعدها يجرى اختيار الأحسن.

كما أنه يمكن أن يعزل المدرس من وظيفته نهائيا أو مؤقتا، ويجرى التحقيق معه عند ثبوت التقصير منه كضعف كفاءته العلمية أو تغيبه عن الدرس أوعدم انسجامه مع قضاة العسكر أو شيخ الإسلام أو غيرهم (أكمل الدين إحسان أوغلى ، 2011، 1/ 291 ،294) ، وقد ذكر طاشكبرى زادة حادثة لعزل أحد المدرسين وهو من معاصري القراباغي حيث قال: «..وكان المرحوم إبراهيم باشا ...صار متوليا عمارة السلطان بايزيد خان بن مراد الغازي بمدينة بروسا، وفتشه المولى الكرماستي وقد كان قاضيا ببروسه وناقشه في الحساب كل المناقشة حتى أضجره وأغلظ عليه في الكلام، فعرضه على السلطان، فعزله السلطان... » (طاشكبرى زادة ، 1975، ص 125)

ومن ثم يمكن القول أن العربية وعلوم الدين كانا من المقومات الأساسية في ثقافة ذلك العصر، وهو الاستمرار الطبيعي للعصور السابقة لأن التراث الإسلامي دمر على أيدي التتار في الحواضر الإسلامية، فلا غرابة أن يكون النتاج التأليفي مصبوغا بصبغة دينية وأدبية (بكري شيخ أمين ، 1986، ص 229) ، بحيث يضمن بها الاستمرار في العطاء أو على الأقل الحفاظ على التراث ومدارسته، وذلك كله ساعد على تأصيل اللغة العربية عند بعض العلماء الترك حتى ألفوا بها وأغنوا بذلك الذات العربي , ويعتبر هذا التأليف في هذه المرحلة بالذات مهما كان نتاجه نسقا تراتبيا قد بقي حيرانا يحاول شق طريق له باقتفاء آثار الآداب القريبة منه الممثلة في العربية والفارسية، أما الفقهاء والعلماء فتابعوا التأليف باللغة العربية لغة القرآن (إدوارد بروي، 1994، ص 591)، وقد نظم بعضهم الشعر بالعربية بالمستوى الذي كتب به العرب أمثالهم أو في مستوى يقاربه، ومن أشهر الأسماء آنذاك: أحمد بن سنان الرومي (939 /1019هـ), طاشكبري زادة (901/961هـ) والكثيرين من الناظمين الترك (راجع التراجم في الكواكب السائرة)

وقد ورث السلاطين هذه النفسية المحبة للعلم والأدب نتيجة تأدبهم في الصغر واهتمام آبائهم بهم وإقرارهم أن السلطان ملزم عليه التشبع بالعلوم والآداب إلى جانب السياسة وفنون الحكم ، فمحمد الفاتح نجده قد ناصر العلوم الدينية والأدب والشعر بما أغدقه على أعلامها، وليس هذا فحسب بل لقد كان مولعا بأن يختبر براعته الشخصية في نظم الشعر، فترك لنا جمهرة من الأشعار جديرة بالاهتمام تمتاز بخصائص فنية

تحاكي الشعر التركي المنتشر أنذالك، وهي جميعا تحاكي الطرائق الفارسية, وكان السلطان محمد رغم معرفته بالعربية شديد الإعجاب بالفارسية عظيم القدر لها، فقد عمد إلى الشاعر شهدي أن ينظم قصيدة بالفارسية تصور التاريخ العثماني على غرار الشاه نامة للفردوسي (كارل بروكلمان، 1968، ص 441، 442).

وأدى هذا الاهتمام بغير العربية أن بعض المؤرخين حكموا على السلاطين العثمانيين بأنهم يجهلون اللغة العربية ويميلون إلى الفارسية بجانب لغتهم القومية، ويقول عمر موسى باشا معلقا على هذا الحكم: « شيء لا بد لنا من ذكره هاهنا وهو دحض ما يقوله بعض مؤرخي الأدب، فهم يزعمون أن هؤلاء السلاطين لا يعرفون العربية إطلاقا وليس لهم أي إلمام أو معرفة بها، وهذا الاعتقاد مخالف للحقيقة والتاريخ..» (عمر موسى باشا، 1980، ص 203) وما يدعم هذا الرأي ما ذكره البكري أن محمد الفاتح كان يتقن العربية وحفظ القرآن في مدة وجيزة (محمد بن أبي السرور البكري ، 1995، ص 42) ، رغم أن الفاتح كان بطلا فذا وسياسي محنك إلا أن هذا لم يمنعه من أن يكون ذا شخصية مرهفة مائلا إلى الأدب ذواقا للشعر إلى درجة انه نظم شعرا بالتركية، واختار لنفسه اسما أدبيا مستعارا على شاكلة معاصريه فاختار اسم عوني (زينب سعد زغلول أبو سنة، 2006، ص 17 ، 18) ، ومن أشهر غزلياته يقول (زينب سعد زغلول أبو سنة، 2006، ص 31):

إن القلب الدامي قد امتلأ بالشوق لوجهك الوردي
هو ماء أسود تجري فوقه ورقة ورد
يقول الذين شاهدوك إنه كم يليق لمجلس حسنك
إكليلان من الورد اليانع أمام سكر عينيك
شفتان تمنحان الرونق والبهاء لوجهك
وحرارة الخمر في وجه الحبيب تزيد من حالة الوجد
إنه لا ينحني رأسه لتاج السلطنة ولا يقبل العرش
إن القلب سلطانك إلا أنه عبد لك بكل أمرائه
وحيث أن عوني صار اليوم ضعيفا لك في الدنيا

وكان خليفته بايزيد الثاني محبا للعلم والعلماء، وقد تصوف ودخل الخلوة مع محمد بن مصطفى العماد المتوفي سنة 920هـ، وهو من أشهر الصوفيين وكان يسمى بشيخ السلطان (محمد بن أبي السرور البكري ، 1995، ص59) وذكر البكري أيضا أن ابن العليف شهاب الدين بن الحسين شاعر مكة المتوفى سنة 926هـ قدم إلى السلطان بايزيد الثاني وصنف له كتابا في التاريخ سماه " الدرر المنظوم في مناقب بايزيد ملك الروم، ثم نظم له قصيدة مدح من ثلاثين بيتا مطلعها: [من الطويل]

خذوا من ثنائي موجب الحمد والشكـر ومن در لفظي طيب النظم والنثـر
لك الخير وان وافيت روما فسربها رويـدا لإسطنبـول سامية الـذكـر
إلى بـايـزيـد الخيـر والملك الـذي حمى بيضة الإسلام بالبيض والسمر

فأعجبت القصيدة السلطان وفرح بها وأعطاه ألف دينار جائزة له (محمد بن أبي السرور البكري ، 1995، ص 65 و69) فالسلطان كان مرهف الحس ذواقا فقد قال عنه أحد مؤرخي الترك : « كان بايزيد شاعرا وملحنا وعالما وخطاطا أخذ الرياضيات والفلسفة والعلوم الدينية ، وكان يقضي معظم أوقاته في صحبة أدباء عصره، وبخاصة أرباب التصوف والشعر، وكان يسعد كثيرا بالمناقشات الأدبية، ويُروى أنه كان يتسابق مع شعراء عصره في إنشاء الشعر(زينب سعد زغلول أبو سنة، 2006، ص 38) ، وكان بايزيد يغمر علماءه وشعراءه بعطاياه الكريمة وامتد سخاءه وكرمه إلى خرسان وبلاد فارس فإرساله الجوائز السنية للشاعر العظيم عبد الرحمن الجامي كل عام لدليل على ذلك . (طاشكبرى زادة ، ص 159)

ونظم بايزيد أشعارا بالتركية وصلت إلى 124 منظومة شعرية ، واتخذ السلطان اسما أدبيا مستعارا له، هو عدلي. ويقول في أجمل غزلياته الصوفية (زينب سعد زغلول أبو سنة، 2006، ص41، 45):

قلبي قلق متكدر وهو يتخيل جمالك كل ليلة
وان قلبه ينعم بالسعادة وهو يبتسم كل ليلة أمام شمس وجهك
لا تنسب همي الى فرهاد أيها القلب
وان كان فرهاد يحفر الجبل ، فان ما يحفره إنما هو قبر لروحك
إن نفسه تتعذب وهي تتعرض للغمز الدامي للسفاك القاتل
إن شفتيك الخمريتين هما منبع الروح
وما كانت القيمة العليا لسيدنا يوسف المصري عليه السلام تقدر بالذهب
ولكن ألف روح ترخص أمام جوهرة تراب قدميك
يبتغي لص القلب أن يسرق كنز حسنك، ولا يعرف كيف يفعل ذلك
إن تنين غدائرك حارس لكنز حسنك
ومنذ أملى كاتب القدرة براءة حسنك وجمالك
فان طغراء حواجبك عنوان لذلك المنشور
وعندما أصبحت ملكا للعالم بهذا الحسن والجمال
فقد صار عبدك عدلي سلطانا لك في مملكة الروم

أما ابنه السلطان سليم فقد ورث الشعر والأدب عن والده، ودرس الرياضيات والفلسفة والآداب و اللغات الشرقية والعلوم الإسلامية، وكان مولعا بنظم الشعر، وله ديوان بالفارسية ، أما أشعاره بالتركية والعربية فهي قليلة (كارل بروكلمان ، 1968، ص 450)، ومن نظمه بالعربية قال: (محمد بن أبي السرور البكري ، 1995، ص 72).

[من البسيط]:

الملك لله من يظفر بنيل غنى يسلبه قسرا ومن ذا يضمن الدركا
لو كان لي أو لغيري قدر أنملة فوق التراب لكان الأمر مشتركا

أما السلطان سليمان القانوني فكان ذا ثقافة واسعة ومعرفة كبيرة بالقرآن وعلوم الدين، وسار على نهج أجداده في ولعهم بالشعر، ونظم في الغزل باسم مستعار، هو مخلص، ومعناها المحب بالعربية، فنظم ديوان شعر يستحق الاهتمام(زينب سعد زغلول أبو سنة، 2006، ص 158، 159).

ومما قاله في الحكمة هذه القصيدة : (زينب سعد زغلول أبو سنة، 2006،ص 160)

لقد ابتليت يوما بعد يوم باضطهاد الفلك لي
ولا عجب إذ أن حال الفلك هكذا منذ الأزل
لا تغتر بالدهر أنه سيجعلك بلا مؤوى
فسعادة وإقبال الفلك يشبهان فلك الصباح
آذ أنه يسعد لعدة أيام ثم يعود فيصيب بالكدر
لم يقر للفلك قرارا يوما أو شهرا أو عاما
فلتأخذ العبرة أيها القلب من اسكندر ودارا وخسرو
إذ أن هذا الفلك الهرم لم يمل إلى أي منهم قيد أنملة
يا محبي إن الفلك يقول أن أحدا لا يأمل مني الوفاء
وهكذا ينادي مناديا صارخا ليلا نهارا

وما يلفت الانتباه أن السلاطين نظموا الشعر وكتبوه بالفارسية بدل لغتهم القومية أو حتى بالعربية شأن كل مثقفي الترك الذين كانوا ينظرون نظرة ازدراء إلى الفكر الشيعي الخرافي وآثاره الأدبية، ولكنهم اعتدوا بالفرس واتخذوهم أئمة في الشعر شأنهم مع العرب في العلم ، ويرون أن إنتاج الشعر والنبوغ فيه يتطلب تقليد الشعر الفارسي الذي هو وحده اللائق بالعقل المثقف .

وهكذا عكف العثمانيون بما امتازوا به من جلد ، وصبر إلى الإنكباب على دراسة الشعر الفارسي دراسة عميقة والحقيقة أن الأتراك قاموا بعمل متقن في ميدان الشرح اللغوي للمنتوج الكلاسيكي الفارسي، فقد وضع الأديب العثماني سروري للسلطان سليمان تفسيره الشهير يشرح فيه آثار الشاعر الفارسي سعدي ، واحتفظ العثمانيون لفترة طويلة باللغة الفارسية وقوالب شعرها إلى جانب ما اقتبسوه ليكونوا ثروة ضخمة من الأغاني والحكايات الشعبية التي عرفتها الحواضر التركية، واستطاعوا بمهارة وجدية أن ينفخوا في تلك الأغاني الشعبية روحا قوية من التصوف والدين (كارل بروكلمان, 1968، ص 485، 486) ، وكانت درجة الشغف بالشعر أن السلاطين كانوا ينظمون مسابقات ومساجلات شعرية في الأعياد يحضرها السلطان ويجازى فيها الفائزون. وكانت تقام أيضا مجالس الشعر، وتعرف باسم قوناق، في طول البلاد وعرضها حتى في الثكنات العسكرية لإلهاب العواطف وتحفيز القرائح، وتقام معها مسارح الدمى المعروفة آنذاك مصحوبة بالموسيقى(أندرو كلو ، 1991 , ص 311) ، وتميز مضمون الشعر في تلك الحقبة سواء كان تركيا أو فارسيا بأنه لم يتعدى حدود القصيدة الغزلية وطبيعتها الموروثة من قبل(أندرو كلو : سليمان القانوني , ص 409) ، وظل يدور في تلك القوالب الصوفية التي تصل بهم من مرتبة الحب إلى الحب الخالص.

المصادر والمراجع

1 / إدوارد بروي ، تاريخ حضارات العالم، تعريب يوسف أسعد داغر، منشورات عويدات، لبنان، ط3، 1994

2 / أندري كلو، سليمان القانوني، تعريب البشير سلامنة، دار الجيل، لبنان، ط1، 1991

3 / أكمل الدين إحسان أوغلى، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، نقله إلى العربية صالح سعداوي، إرسيكا، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط2001/1

4 / إينالجيك خليل، ترجمة محمد م الأرنؤوط، دار المدار الإسلامي ، بيروت، ط1، 2002

5 / بروسه لى طاهر، عثمانلى مؤلفلرى، مطبعة عامره، استنبول، 1333هـ

6 / بكري الشيخ أمين، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1986

7 / حاجي خليفة، كشف الظنون، صححة شهاب الدين النجفي المرعشي، دار إحياء التراث العربي، لبنان، دط،دت

8 / الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط10، 1992

9 / زينب سعد زغلول أبو سنة، الشعراء السلاطين العثمانيون، مكتبة زهراء الشرق القاهرة، ط1، 2006

10 / طاشكبرى زادة، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، دار الكتاب العربي، بيروت، دط، 1975

11 / علي بن بالي، العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم، نشر مع الشقائق، دار الكتاب العربي، بيروت، دط، 1975

12 / ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن الدولة العثمانية، كثير، بيروت، ط1، 1993

13 / عمر موسى باشا، محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني، مطبعة الإحسان، دمشق، دط، 1980

14 / الغزي نجم الدين، الكواكب السائرة، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997

15 / كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمه منير البعلبلكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط10، 1984

16 / ليلى الصباغ، من أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، ط1، 1986

17 / يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمد سلمان، مؤسسة فيصل، تركيا، ط1، 1988

.....

...